

ندوة: مساهمة المؤرخين الأرثوذكس في التاريخ، المؤتمر المنعقد في دير سيدة البلمند البطريركي، 12 - 14 آذار 2007،
جامعة البلمند 2011، ص 237 - 254.

فلسطين: تاريخاً ومجتمعاً في مذكرات خليل السكاكيني

عبد الرؤوف سنو
الجامعة اللبنانية

تحتل يوميات خليل سكاكيني بين كتب المذكرات حول فلسطين أهمية خاصة، ذلك أنها غطت، ولو بشكل منقطع، مساحة زمنية طويلة من تاريخ هذا البلد، ولم تقتصر على السياسة فحسب، بل شملت الأدب والتاريخ والمجتمع والتربية وعلم النفس والفلسفة. فأنت بملاحظات قيمة، وإن غير متكاملة، لمست المجتمع الفلسطيني في جوانب مختلفة في فترات حساسة من تاريخه الحديث. وتشكل اليوميات مشاهدات وتجارب، وتكشف عن شخصية وجدانية قلقة بفعل ما عصف بفلسطين من أحداث عشية الحرب العالمية الأولى وبعدها، فضلاً عن معانات السكاكيني الإنسانية والإيمانية والوطنية والقومية. ولم يكن السكاكيني مجرد مؤرخ أو ناقد أو شاهد على عصره، بل ثائر على التقاليد الاجتماعية السائدة، التي اعتبرها مسببات لما يتخبط به العرب من مصائب وأزمات، ووصلت ثورته إلى حد انتقاد الكنيسة والعزة الإلهية. فعلى الرغم إعجابه بالسيد المسيح وتسامحه، تحدى السكاكيني مشيئة الله، وانتقد الكنيسة الأرثوذكسية والمتسلطين عليها من اليونان. علاوة على ذلك، كان السكاكيني وطنياً ناشطاً في سبيل فلسطين، وقومياً عربياً داعياً إلى وحدة العرب وإلى "جامعة عربية". أعلن صراحة وجهاراً عن عدائه للاستعمار والصهيونية مدركاً خطرهما على العرب وفلسطين.

سوف نسلط الضوء في هذا البحث على السكاكيني من خلال شخصيته، ومنابع فكره، ودوره التربوي وكمصلح اجتماعي، وعدائه للكنيسة الأرثوذكسية ومواقفه الإيمانية، ومن الحركة الصهيونية، وأخيراً، في أن إنقاذ الأمة العربية لا يكون إلا بتوحيدها. وإنما نطرح الفرضية، أن السكاكيني كان مراقباً وناقداً لعيوب مجتمعه، لا فيلسوفاً ولا مؤرخاً ولا عالم اجتماع، هزه ما شاهده وعانى منه، فأدلى بدلوه في سياق خواطر وجدانية صادقة، وصلت إلى حدّ "الثورة" على السياسات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية.

1- شخصية سكاكيني ومنابع فكره

وُلد خليل سكاكيني في فلسطين عام 1878، وتزوج من سيدة أسما سلطانة وأنجب منها ولده الوحيد سري وابنتين. وقد فُجع بموت زوجته عام 1939، وولده الوحيد عام 1953، فسيطر

عليه الحزب والتشاؤم، فمات بعده أشهر ثلاثة. والسكاكيني أديب وكاتب ومربي من أعضاء "المجمع العلمي العربي في دمشق" و"لمجمع اللغوي في القاهرة". اشتغل بالتعليم، وكان ممن حمل الفكرة العربية قبل الحرب العالمية الأولى. نُفي خلال الحرب تلك إلى دمشق من قبل السلطات العثمانية لأنه أوى يهودياً في منزله. ثم فرّ من دمشق ومنها إلى القاهرة، حيث تعرّف هناك إلى مصطفى عبد الرازق وأحمد زكي، وأمين الريحاني.¹ وعاد بعد الحرب إلى القدس. فعمل مفتشاً في إدارة المعارف²، وأسس المدرسة الدستورية لتكون مصنعاً للرجال، كما قال³.

بدأ السكاكيني حياته فقيراً، فهاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية وأقام في مدينة نيويورك بين عامي 1907 و1908، حيث تعرّف إلى مثقفين لبنانيين وسوريين ومن ضمنهم مخائيل نعيمة وفرح أنطون، فعمل مع الأخير في مجلة "الجامعة" وتأثر بأفكاره. كما قرأ لشبلي شميل في العلمانية، وتأثر في مرحلة لاحقة بأفكار مفكرين آخرين.⁴ تعرّف في نيويورك إلى المجتمع الأميركي من دون أن يندمج فيه. وبعد عودته إلى فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى، اشتغل في السياسة، معتبراً أنها ضرورة من أجل البحث في حرية فلسطين والبلاد العربية وسعادتها وتوفير أسباب تقدمها ورفقيها. مع ذلك، لم ينتسب إلى حزب بسبب شكوكه بالأحزاب ونزعتة الإنسانية الشاملة.⁵ اقتصر نشاطه الاجتماعي على ارتياد "مقهى الصعاليك" في القدس، الذي أسسه ليرتاده المثقفون والصحافيون والمحررون لتبادل الآراء واصطياد الأخبار.⁶ كما التحق بـ "جمعية الإخاء العربي"، وساهم في إنشاء "جمعية الإخاء الأرثوذكسي" في العشرينات بهدف تحرير الكنيسة الأرثوذكسية من هيمنة رجال الدين اليونان عليها.⁷ كان صديق رستم حيدر ورياض وعفيف الصلح وموسى العلمي وعبد القادر المغربي وجورج أنطونيوس.⁸ أحب ممارسة الألعاب الرياضية والاستحمام بالماء البارد والتغذية الجيدة والنوم والسرور والضحك وتحديد ساعات العمل، وأدمن على تدخين النارجيلة، ووضعها في منزلة بعد حبيبته سلطنة. وقد اعتبر السكاكيني أن هذه الأشياء كلها تؤدي إلى خلق الإنسان القوي السعيد

* * * *

قامت شخصية خليل سكاكيني على ثلاثة مبادئ أساسية: 1- منظومة أخلاقية قوامها الصدق والنزاهة والجرأة وشجاعة الرأي والابتعاد عن التزلف والمحاباة. 2- تقديس العمل المنظم الهادف. 3- النزوع إلى التمرد برفض ما يخالف العقل والمنطق. ومن خلال مبادئه هذه، برزت شخصيته

¹ فوزي الأسعد، خليل السكاكيني 1878-1947، الموسوعة التربوية الفلسطينية 1994، ص 8.
² خير الدين الزركلي، قاموس تراجم الأعلام لأشهر أخبار الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج2، ط7، 1986، ص 321.
³ عبد القادر ياسين، المربي خليل السكاكيني، دار المبتدأ للطباعة والنشر، 1992، ص 6.
⁴ سليم تماري، "السكاكيني في نيويورك. الفترة التكوينية في حياة أديب مقدسي 1907-1908"، في: *الدراسات الفلسطينية* (بيروت)، 56 (2003)، ص 85-108؛ عبد القادر ياسين، المربي خليل السكاكيني، ص 15.
⁵ تماري، السكاكيني في نيويورك، مرجع سبق ذكره، ص 87.
⁶ سليم تماري، "مقهى الصعاليك وإمارة البطالة المقدسية"، في: *الدراسات الفلسطينية* 57 (2004)، ص 122.
⁷ كذا أنا يا دنيا، يوميات أعدتها للنشر هالة السكاكيني، القدس 1955، ص 39-40.
⁸ خليل السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص 14-141.

المميزة ودورها الثقافي الفلسطيني والعربي، فسورها في مذكراته اليومية "كذا أنا يا دنيا"، الذي جمعه ونشرته ابنته هالة عام 1955، فبرز "مؤرخاً" في الشؤون العامة والخاصة، مقدماً بانوراما لأوضاع فلسطين الاجتماعية والسياسية والعسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى، مسلطاً الضوء على أبعاد الشخصيات العربية في فلسطين إلى دمشق بعد سقوط القدس 1917 بأيدي البريطانيين.⁹ كذلك، أعطى صورة واضحة عن المدينة المقدسة في فترة الانتداب البريطاني، ورصد أخبار المؤتمرات السياسية التي عُقدت فيها، ولم يتوان عن مهاجمة الكنيسة اليونانية وكهنتها، إلى درجة التشكيك بالمسيح. وتحدث بإيجاز عن الحركة الوطنية الفلسطينية والتظاهرات المعادية لبريطانيا واليهود. كما رصد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وسلط الضوء على أحداث فلسطين وحرب عام 1948.¹⁰ فغادر خلالها إلى القاهرة وبقي هناك حتى وفاته. ويحتوي كتابه "سري"، وهو عبارة عن رسائل وعظ غير مباشر إلى ابنه الموجود على مقاعد الدراسة في الولايات المتحدة بين عامي 1931 و1937، على مجموعة من الأفكار التوجيهية والأخلاقية والإيمانية والفلسفية، إضافة إلى أخبار عائلية واجتماعية وسياسية وأدبية ودينية.¹¹

وخلال رحلته الطويلة كتربوي تقدمي وإداري ومراقب اجتماعي وسياسي، اطلع السكاكيني على أفكار فلاسفة ومفكرين، مما ساعده على وضع خواطره والتعبير عن فلسفته في الحياة. فقرأ للفيلسوف الألماني فريدريش نيتشه (Friedrich Nietzsche) في ما يتعلق بمذهب القوة والفرد الذي يصنع تاريخ أمته. آمن بفلسفة السعادة متأثراً بأحمد بن مسكويه، وما لبث أن تأثر بنقيضتها، فلسفة الفناء لأرثور شوبنهاور (Arthur Schopenhauer). وفي مجتمع إسلامي تقليدي، ربما كان خليل السكاكيني أول من تحدث بجرأة نادرة عن المرأة ومسؤوليتها عن شرفها في فلسطين.

كان نيتشه من الفلاسفة الألمان الذين مجدوا القوة المطلقة المجردة من الإنسانية والأخلاق، التي تقوم على فكرة الفرد والصراع.¹² ورأى أن يؤس أمة بكاملها ليس بالأمر الجلل، إذا ما قيس ببؤس رجل عظيم واحد. وكان يحقر المرأة، وهو الفائل على لسان زرادشت (هكذا تكلم زرادشت)¹³ إنها وجدت من أجل الترفيه عن المحارب.¹⁴ كما كان ضد النصرانية، لأنها تذلل الإنسان وتخضعه وتجعله عبداً لها.¹⁵ من هنا، اعتبر أن الدين المسيحي والأخلاق والإنسانية تضعف إرادة الصراع ضد القوى الثورية المتربصة بالدولة. وفيما اعتبر نيتشه أن الرجل العظيم هو الفاتح الذي يستعمل القوة لتحقيق أهدافه، بغض النظر عن طرق توسلها، اعتبر فيلسوف التشاؤم

⁹ نواف عبد حسن، خليل سكاكيني بين الوفاء والذكرى، مركز إحياء التراث العربي، القدس 1991، ص 106-107.

¹⁰ نواف عبد حسن، خليل سكاكيني، ص 108-109.

¹¹ تانيا ناصر، الأب والأبن... الرسائل واليوميات، مقدمة الكتاب الرابع من يوميات خليل السكاكيني، يوميات، رسائل وتأملات بين الأب والأبن: رسائل خليل إلى سري في أميركا 1931-1932، ج1، تحرير أكرم مسلم، رام الله 200.

¹² الموسوعة الفلسفية، إشراف م. روزنتال/ب. يودين، ترجمة سمير كرم، بيروت 1974، ص 506-507.

¹³ فريدريش نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة جديدة كاملة، منشورات المكتب العالمي للطباعة والنشر، لات.

¹⁴ سمير شيخاني، مع الخالدين، دار المعارف 1959، ص 263-264.

¹⁵ شيخاني، مع الخالدين، ص 264.

شوبنهاور أن الرجل العظيم هو الذي يتجرأ على سلوك طريق الموت ويفضله على البقاء. وقد اقتبس فكرة "وأد الحياة" من "النبرفانا" البوذية، وهي مصطلح تقني يطلق على حالة الفناء الصوفي والتي يصل إليها الإنسان بعد التحرر والاستتارة بعد الموت.¹⁶ وعلى النقيض لشوبنهاور، كان ابن مسكويه من المؤمنين بفلسفة السعادة، فطالب بأن تصدر كل أفعال الإنسان جميلة، وربط بين الخير والسعادة، معتبراً أن الأخيرة تكون في خمس مراتب، وهي: صحة البدن والحواس، والثروة والأعوان، وأن يكون ذو سمعة حسنة بين الناس يُذكر بالخير، وصاحب عزم لتحقيق ما يصبو إليه، وأخيراً جيد الرأي صحيح الفكر.¹⁷

يُقرّ السكاكيني أنه أعجب بمبدأ القوة والشطحات الإلحادية عند نيتشه، والطموح عند الشاعر أبي الطيب المتنبي. لكن، على الرغم من إعجابه بالفيلسوف الألماني، وإقراره أن مبدأ القوة هو الذي يؤدي إلى إصلاح المجتمع، إلا أن السكاكيني رفض من فلسفته ما يتعلق منها بالقوة المجردة للفرد التي تؤدي إلى قهر الآخرين وإحاق الظلم بهم. فاعتبر أن القوة هي في أن يكون الإنسان قوياً في جسده وعقله ونفسه. فمبدأ القوة ضروري، في نظره، كي يعمل الإنسان ويقوم بواجباته ويتحمل الألم والتعب والمصائب، لا أن يتلذذ بالاغتصاب والتدمير والتحطيم ومقابلة الشر بمثله.¹⁸ فتصور شخصيات بطلة مبدعة تتحلى بالقوة والإنسانية والأخلاق تعمل على تجديد شباب أمتها.¹⁹ وفي رأيه، فهؤلاء الأبطال موجودون في شتى شرائح المجتمع: كالأنبياء والشعراء والكتاب والملوك والمعلمين والأدباء. وبهذا كان السكاكيني يلتقي مع الفيلسوف والمؤرخ البريطاني أرنولد توينبي (Arnold Toynbee)، أو ربما متأثراً به، الذي اعتبر أن الصانع الحقيقي للتاريخ هو الشخصية الفردية المبدعة، سواء أكان متصوفاً أم شاعراً، أم رجلاً سياسة، أم قائداً عسكرياً أم مؤرخاً أم فيلسوفاً.²⁰

وفي إشارة إلى البطل القوي الذي تحتاجه الأمة العربية لينقذها من تخلفها وسباتها ويجدد شبابها ويعيد مجدها، ذكر السكاكيني البارون روتشيلد الذي كان ينفق أمواله في سبيل إحيائها أمتة اليهودية،²¹ والأمير فيصل بن حسين الذي رأى فيه أملاً مشرقاً لغد عربي تتحقق فيه الحرية والوحدة والاستقلال.²² حتّى أنه دعا العرب إلى خلق أبطال ورموز وهميين يتمثلون بهم في كل مجالات الحياة، إذا كان هذا يساعدهم على الخروج من نفق الجهل والتخلف ويعلمهم الكبرياء بدل التواضع، والقتال والتطرف والتعصب بدل الاعتدال والتساهل، والوقاحة بدل الحياء والكرم.²³

¹⁶ منتديات الكنيسة، "هل المسيحية مقتبسة من البوذية؟"

www.arabchurch.com/forums/showthread.php?t=41156

¹⁷ قسطنطين زريق، ص 79.

¹⁸ يوسف يوب حداد، خليل السكاكيني، حياته، مواقفه وآثاره، الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، 1981، لام، ص 330.

¹⁹ خليل السكاكيني، ما تيسر، ج2، القدس لات، ص 6-7.

²⁰ صدقي عبد الله خطاب، "أرنولد توينبي"، في: *عالم الفكر* (الكويت)، إبريل - مايو - يونيو 1974، ص 301.

²¹ السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص 59-60.

²² حداد، 54.

²³ السكاكيني، ما تيسر، ص 103.

أما عن ابن مسكويه وشوبنهاور، فقد اعتنق السكاكيني نقيضين فلسفيين: فلسفة الحياة عند الأول، وفلسفة الموت عند الثاني.²⁴ فتأثر بابن مسكويه، رابطاً ما بين السعادة الفكرية والسعادة العملية والدعوة إلى الإقبال على الحياة والابتهاج بها وإقامة الليالي والاجتماعات الأنيسة اللطيفة، والاعتناء بالموسيقى والغناء وممارسة الرياضة، واختيار نوعية الغذاء، والصبر والشجاعة في مواجهة المحن والمصائب والحزن. إن إدراك السكاكيني أن الموت لا بد منه، جعله يؤمن بفلسفة السعادة، واستغلال كل دقيقة للاستفادة منها. فيقول: "كان الأولى ألا نعيش. أما وقد قدر لنا أن نجيء إلى هذه الدنيا، فاعثموا فرصة وجودكم وانعموا ولذوا وأضحكوا إلى أن يحين الأجل، فيرجع كل منكم إلى العدم، وقد قضيتم شهوتكم من هذا الوجود".²⁵ أن الحديث عند "العدم" ما بعد الفناء، هو من الشطحات الملحدة في فكر السكاكيني، مناقض للمعتقدات الدينية. على كل حال، انعكست سعادته العائلية على مجمل نواحي حياته. فرأى أن السعادة تكمن في الأسرة والإنجاب، أي بمبدأ استمرارية الحياة. لكن وفاة زوجته سلطانه ثم ابنه، جعلته ينقلب على مبدأ السعادة، ويعتقد فلسفة شوبنهاور، فحلّ التشاؤم عنده محل التفاؤل، والدعوة إلى الموت محل حب الحياة، بعدما أعلن جهاراً عن رفضه لهذا العالم وضجيجه والمعاناة التي يعيشها الإنسان. فاعتبر أن الحياة أكذوبة، وأعظم بركة هي الموت. فكتب يقول: "أيها الناس كيف تطيقون هذه الحياة، كيف تحرصون عليها، وكيف تتزاوجون وتتناسلون إذا عرفتم أن أعزاءكم ستأكلهم الديدان؟" ويضيف: "إذا أردتم أن تعرفوا الحياة، فزوروا المستشفيات وأقروا عن الأمراض وزوروا السجون وساحات الوعى".²⁶ وقال أيضاً: "ليتنا لم نخلق. أما وقد خلقنا فليتنا متنا صغاراً، أما وقد عشنا فليتنا لم نتزوج. أما وقد تزوجنا، فليتنا لم نرزق أولاداً. أما وقد رزقنا أولاداً، فليتنا نوفق إلى إسعادهم تكفيراً عن هذه الجناية التي جنيناها عليهم لغير ذنب جنوه"²⁷ وهذا يذكرنا بقول الشاعر أبو العلاء المعري في معرض كراهية للحياة بسبب التشويه الذي أصابه به مرض الجدري، حيناً قال: "هذا ما جناه أبي علي وما جنيت علي أحد".

2- السكاكيني مربياً ومصلاً اجتماعياً

رأى السكاكيني أن التعليم والتربية المدرسية هما الوسيلة لإخراج الأمم من كبوتها، وأن ما هو حاصل من تعليم تقليدي في فلسطين متخلف ويعود إلى مسألتين: ارتباط السكان بالمدرسة الرسمية في فلسطين، وعدم اهتمام الإرساليات الأجنبية في تأسيس مدارس راقية على نسق ما فعلته في بلادها، أو في قدرتها على معرفة حاجات المجتمع الفلسطيني، فضلاً عن إهمالها اللغة العربية وقيامها بالتبشير.²⁸ وللنهوض بالتعليم، لم يجد السكاكيني مناصاً إلا بإقامة المدارس على الطراز الأوروبي والتعلم مباشرة من الغرب وبلغته، معتبراً ذلك لا يمس بالوطنية والكرامة القومية بشيء. وقال: "إن اللغة ليست غاية، وإنما وسيلة، واللغة العربية لا تصلح اليوم أن تكون وسيلة لطلب

²⁴ نواف عبد حسن، خليل سكاكيني بين الوفاء والذكرى، ص 97.

²⁵ السكاكيني، كذا، ص 337.

²⁶ السكاكيني، كذا، ص 326-327.

²⁷ السكاكيني، كذا، ص 324.

²⁸ خليل السكاكيني، ما تيسر، ج2، القدس لات، ص 13-15.

العلم، فلا يضرنا شيء أن نتخذ غيرها وسيلة ولو على حين...".²⁹ فطالب السلطات في فلسطين بإنشاء مدرسة للتربية لتعليم المعلمين أصول التعليم والتربية، واعتماد التعليم الإلزامي المجاني.³⁰

حاول السكاكيني أن يترجم دعوته للارتقاء بالتعليم على أسس وطنية بتأسيسه مدرسته "الدستورية" و"الوطنية" اللتين ضمنا تلامذة من الطوائف كافة، وربما اقتداءً ببطرس البستاني و"مدرسته الوطنية".³¹ ومن على منبر هاتين المدرستين، عمل السكاكيني على توجيه الناشئة إلى أخطار الصهيونية على فلسطين. وجعل العرب يفخرون بأمتهم العربية من خلال تعليمهم خصالها ودورها الثقافي والمبادئ العالية التي بنيت عليها. فكان يطالب تلامذته بحمل هذه المبادئ والوفاء لأمتهم العربية.

وفي شأن أرائه في المجتمع الفلسطيني، لم يكن السكاكيني طبقياً ولا طائفيًا، فهو رفض الطبقة، وتصور مجتمعاً يلقي بالمسؤولية الإنسانية على عاتق الطبقات العليا والمتفقة للسعي إلى النهوض بالطبقات الدنيا، وأن تكون قدوة صالحة لها. فطالب ابنه سري بالسعي إلى النهوض بالإنسانية والأخذ بيدها إلى العلا، وقال له: "لا أحب أن يكون هناك متقدمون ومتأخرون، ولكن إذا لم يكن من بد أن تسير في قافلة الإنسانية، فأعينك أن ترضى أن تمشي إلا في الطليعة، لا لتزهي نفسك، ولكن لتكون قدوة صالحة لغيرك".³²

وعلى الرغم من أن الطائفية لم تكن متغلغلة في المجتمع الفلسطيني كما الحال في لبنان، ولم يتناولها السكاكيني بشكل واسع، إلا أنه أشار إلى أن المجتمع الفلسطيني كان يعاني من هذه الآفة، وأعطى مثالا على ذلك مساعي الأكثرية الإسلامية للاستقلال في فلسطين، ليس حباً به، وإنما كي تستلم الحكم ويصبح المسيحيون بالتالي تحت حكمها. ورأى أن وقوف المسلمين إلى جانب الملك حسين بن علي وابنه الأمير فيصل، يعود إلى أنهما مسلمان، ولو كانا غير ذلك لانفضوا من حولهما، فهم لا يطلبون بالاستقلال بل الحكم.³³ وبفعل الطائفية والتأثير الأجنبي، رأى السكاكيني أنه لا يمكن التحول إلى الوطنية بالسرعة المنشودة، وأن المسألة تحتاج إلى جيلين أو ثلاثة أجيال، ولا يتحقق هذا إلا بالتربية على الوطنية.

ومن ناحية الاقتصاد الفلسطيني، فضّل السكاكيني المجتمع الزراعي على المجتمع الصناعي، معتبراً أن المجتمعات الصناعية، قائمة على التنافس بين القوي والضعيف، وبين من يمتلك الرأسمال ومن لا يمتلكه، ما يوجب الصراع الطبقي بين الفريقين. فقال: "ليعمل كل واحد في أرضه ويكفي نفسه".³⁴ وعلى ما يبدو، كان تحت هاجس المنافسة اليهودية للصناعات

²⁹ كذا أنا يا دنيا، ص 317.

³⁰ كذا أنا يا دنيا، ص 169.

³¹ جان دايه، المعلم بطرس البستاني، دراسة ووثائق، منشورات مجلة **فكر**، لام، 1981، ص 43-49.

³² السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص 225.

³³ يوميات خليل السكاكيني، يوميات، رسائل، تأملات، الكتاب الثالث: "اختبار" الانتداب وأسئلة الهوية، تحرير

أكرم مسلم، رام الله 2004، ص 163.

³⁴ يوميات خليل السكاكيني، الكتاب الثالث، ص 155.

الفلسطينية،³⁵ وهو ما أشار إليه في ما بعد يوسف صايغ حول مدى تفويض الاقتصاد الصهيوني للاقتصاد الفلسطيني.³⁶ لذا، اعتقد السكاكيني أن الزراعة هي الوحيدة التي تجعل الناس يتمسكون بأرضهم كي لا تذهب على اليهود. وعلى الرغم من ذلك، طالب السكاكيني بحقوق للعمال الفلسطينيين مساوية لتلك المعمول بها في أميركا، لناعية ساعات العمل والإجازات السنوية وخلافه.

ولعل موقف السكاكيني من المرأة والدفاع عن حقوقها في فلسطين مطلع القرن الماضي، من المسائل اللافتة بالنسبة إلى خواطره الاجتماعية. فانتقد بجرأة غير معهودة موقع المرأة في المجتمع الشرقي، معتبراً أن الحرية التي يجب أن تتمتع بها هي من حقوقها الطبيعية التي تؤدي إلى رقيها وتجعلها تمارس دورها في المجتمع. ورأى أن أحداً لا يجوز له أن يرضّ عليها بها أو يسلبها إياها. من هنا، رفض السلطة البطريركية التي يمارسها الرجل على المرأة وإدعائه بمسؤوليته عن شرفها. فينتقد هذا بالقول: "يجب أن يكون للمرأة شرف شخصي، ويجب أن تكون هي المسؤولة عنه، وإذا كانت كذلك، فلها الحق المطلق أن تكون حرة لا أن تنفي نفسها في زوجها أو في أبيها أو أخيها".³⁷ هذا القول التقدمي لمربي وناقد اجتماعي يعتبر جريئاً في مجتمع شرقي محافظ، وربما لم يسبقه إليه سوى رفاة الطهطاوي، وقاسم أمين الذي تكلم بإسهاب في الموضوع نفسه وتعرض إلى النقد الشديد والتهجم بعد إصداره كتاب "تحرير المرأة".³⁸ و مما لا شك فيه، أن السكاكيني اطلع على كتابات الطهطاوي وأمين قبل أن يدلو بدلوه حول المرأة وشرفها. وكما كانت الفتاة الفرنسية سلافا (Slava) التي أحبها قاسم أمين حباً رومانسياً، هي وراء تولد أفكاره حول المرأة كحافز ومساعد في حياة الرجل والمجتمع،³⁹ كذلك كانت سلطنة الحافظ وراء احترام السكاكيني للمرأة.

3- السكاكيني والكنيسة الأرثوذكسية: من الإصلاح إلى الإلحاد

منذ العشرينات، اتخذ السكاكيني موقفاً داعماً لإصلاح الكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين وتعريبها، وإبعاد هيمنة الإكليروس اليوناني عليها.⁴⁰ فعمل على إصلاحها من الداخل عبر "الجمعية الأرثوذكسية" و"المجلس الملي الأرثوذكسي". وعندما فشل في ذلك، انقلب على الجمعية والمجلس وشنّ حرباً مفتوحة ضد الإكليروس اليوناني كجسم غريب فاسد غير وطني يعمل على ابتزاز الأموال والسرقة، والتسلط على فلسطين وربط الملة به، تارة بالتحالف مع العثمانيين وتارة أخرى بالتحالف مع الإنكليز. ووصف السكاكيني ما يقوم به الإكليروس اليوناني بالعمل الاستعماري،

³⁵ حول هذه المنافسة، أنظر مقالات جريدة *الكرمل* 13 أيار 1913، و*فلسطين* 28 آب 1912، و*المقتبس* 6 أيلول 1910.

³⁶ يوسف صايغ، الاقتصاد الإسرائيلي، ط2، بيروت 1966.

³⁷ السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ص 140-141.

³⁸ قاسم أمين، تحرير المرأة، دار المعارف بمصر، ص 38-115.

³⁹ الأعمال الكاملة. دراسة وتحقيق محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1976، ص 21-22.

⁴⁰ حول موضوع هيمنة رجال الدين اليونان على الكنيسة الأرثوذكسية، راجع: Derek Hopwood, The Russian Presence in Syria and Palestine 1843-1914. Church and Politics in the Near East, Oxford 1969.

معتبراً أن المرض الذي أصيبت به الكنيسة الأرثوذكسية ينحصر في 3 نقاط وحلول: 1- الرئاسة الأجنبية ويجب أن تكون وطنية، 2- الرئاسة معوجة ويجب أن تستقيم؛ 3- الرئاسة فوضى ويجب أن تنظم، وعلى الملة الأرثوذكسية أن تتخلص من قياداتها التقليدية.⁴¹ وبسبب هذه المواقف، أعلن البطريرك اليوناني تحريم دخول السكاكيني إلى الكنيسة، فيما قرر الأخير خروجه النهائي على الكنيسة بالقول: "أنا لست أرثوذكسياً".⁴²

وفي معرض هجومه على الإكليروس اليوناني، ومواقفه الناقدة للكنيسة الأرثوذكسية في فلسطين، هناك ميل نحو الإلحاد وتحدي مشيئة الرب. فاعتبر السكاكيني النصرانية دعوة إلى عصيان قانون الطبيعة مستشهداً بحادثة تناول آدم التفاحة، رغم أن الله نهاه عنها. فأيد قيام آدم بأكل التفاحة باعتباره أسلوباً علمياً بني على الاختبار لمعرفة ما وراء الأكل. ويخلص إلى أن من يرضخ لمشيئة الله وشريعته "هو عبد لا يعرف الحرية"، أما الذي يمثل إلى فلسفته وفكره، فهو إنسان حر.⁴³ وكان السكاكيني بموقفه هذا قريباً جداً من فكر نيتشه تجاه الدين. وفي معرض هجومه على الدين المسيحي، ينتقد السكاكيني المسيحيين الذين يعتقدون أن المسيح أرسله الله كي ينقذ العالم، ويرى أن معنى ذلك أن الله غير راضٍ عن آدم ونسله، ما حتم عليه إرسال ابنه "ليجرب دوره" في تغيير الناس وهدايتهم، فلم يوفق. ويختم بالقول: "لم يبق إلا أن ينزل هو بنفسه (الله)، والأرجح أنه لن يوفق".⁴⁴ وأبلغ السكاكيني صديقاً له إنه لا يخاف جهنم ولا يرغب في السماء، ولا يريد أن يصلي ولا أن يستغفر الله، ولا أن يشكره على إحسانه، ولا أن يعتمد عليه.⁴⁵ ويصل الأمر به إلى رفض المقولة التي تعتبر أن إلغاء الدين والحكومات يؤدي إلى خراب العالم ويحول الإنسان إلى شيطان وحيوان مفترس. فيشبه الدين والحكومات بسوط، معتبراً أن البشرية من دونهما لتأخت وعاشت بسلام.⁴⁶ لكن رفضه الدين، لم يمنعه من إبداء الإعجاب بالسيد المسيح، فيعتبره مثلاً في المحبة والتسامح والاتقاء بالروح عن مفاسد الأرض ومغرياتها.⁴⁷

واللافت في السكاكيني، هي دعوته المسيحيين العرب عام 1932 إلى اعتناق الإسلام حفاظاً على قوميتهم ومنع الإكليروس الأجنبي من تغريبهم وسلخهم عن مجتمعهم، وبالتالي تحقيق أهدافه.⁴⁸ فيعدد محاسن الإسلام ومزايا النبي محمد في مقالات عدة، ويخلص إلى القول مهاجماً الإكليروس: "لقد أضلوا أطفالنا وأسأوا إلى عواطفنا، مزقونا شر تمزيق، أفيليق بنا بعد هذا أن نتبعهم؟ أيتبع الإنسان جلاده؟ فما ضرّ نصارى العرب لو اهتدوا بنور الإسلام، وهو دين عربي مبين أقر به نفس الفلاسفة الفرنجة كما رأيت. وإذا كنت أدعو إليه، فلأني أبشر بالاتحاد المقدس

⁴¹ حداد، خليل السكاكيني، ص 187-188.

⁴² حداد، خليل السكاكيني، ص 48.

⁴³ كذا أنا يا دنيا، ص 345-346.

⁴⁴ كذا أنا يا دنيا، ص 349.

⁴⁵ كذا أنا يا دنيا، ص 151-154.

⁴⁶ كذا أنا يا دنيا، ص 82.

⁴⁷ يوميات خليل السكاكيني، الكتاب الأول، نيويورك، سلطنة، القدس 1907-1912، تحرير أكرم مسلم، رام الله

2004، ص 12.

⁴⁸ حداد، خليل السكاكيني، ص 192-193.

الذي هو أساس القوة. هذا إذا أردنا أن نتخلص من رقبة الاستعمار البريطاني الصهيوني والأجنبي ... حينئذ لا يكون هناك إلا عرب مسلمون ونصارى أجنب".⁴⁹

4- صهيئة فلسطين والدعوة إلى المقاومة الذاتية

كان السكاكيني بين قلائل من العرب والفلسطينيين، كنجيب عازوري ونجيب نصار وعيسى العيسى وروحي الخالدي وفرح أنطون ومحمد رشيد رضا، ومحمد كرد علي، الذين سبقوه إلى إدراك خطر الصهيونية أيديولوجياً وسياسياً واقتصادياً واجتماعياً على عروبة فلسطين، لكنه ميّز بينها وبين اليهودية، وهو ما تجلّى في علاقته الشخصية الإنسانية مع بعض تلامذته من اليهود.⁵⁰ واعتبر أن الصهيونية مرتبطة بالاستعمار، منبهاً إلى أنها تعمل على قطع تواصل الأمة العربية بين آسيا وإفريقيا، عبر إقامة عنصر يهودي غريب في فلسطين، وهو ما خلص إليه مؤتمر بريطاني رسمي عام 1907.⁵¹ ومن المؤكد أنه كان من بين الأوائل الذين لفتوا الانتباه إلى المسألة اليهودية في أوروبا، التي تدفع اليهود للهجرة إلى فلسطين تحت ستار الحج أو الهرب من فظائع اللاسامية. فتساءل في عام 1923: "هل السكان الفلسطينيون ملزمون أن يتحملوا الاضطهاد وخسارة الوطن لإنقاذ اليهود من الاضطهاد الأوروبي". فهاجم أوروبا معتبراً إياها أصل البلاد لما تتعرض له فلسطين.⁵²

بناءً على ما سبق، دعا السكاكيني أبناء قومه إلى مقاومة المشروع الصهيوني، من خلال وضع الخطط لذلك، عبر زعماء وطنيين لا الزعماء التقليديين أصل البلاء. فطالب بالتصدي لسياسة الانتداب البريطاني المنحازة إلى اليهود، ووقف الهجرة وبيع الأراضي إليهم وكذلك نشاط السماسرة العرب في هذا الشأن، وتحسين الأحوال المعيشية والصحية للمزارعين الفلسطينيين لتحسين مقاومتهم. وأشاد السكاكيني بثورة عام 1936 في فلسطين، التي اعتبرها درساً لأوروبا في المقاومة الوطنية.

وبموضوعية، يحلل السكاكيني الأسباب التي تضعف المقاومة الفلسطينية أمام المشروع الصهيوني، ويرى أن في مقدمها الاعتقاد العام أن "تصريح بلفور"، وزير الخارجية البريطانية، جاء لخدمة المصالح الإنكليزية في مرحلة الحرب العالمية الأولى، وسيزول بانتهاء الحرب، وثقة العرب التامة ببريطانيا، وأنهم يستطيعون إبطال مفاعيل الوعد في الوقت المناسب. وأخيراً، أن اليهود هم أعجز عن تنفيذ مضمون التصريح.⁵³ ولسبب غير معروف، لم يتحدث السكاكيني عن "وعد بلفور" قبل عام 1923، مع أنه أشار إلى دور بريطانيا والاستعمار في تهويد فلسطين. واعتبر أن "وعد بلفور" هو قضاء على الأمة العربية في فلسطين، والخطوة الأولى للقضاء على

⁴⁹ حداد، خليل السكاكيني، ص 192 – 193.

⁵⁰ يوميات خليل السكاكيني، يوميات، رسائل وتأملات، الكتاب الثاني، النهضة الأرثوذكسية، الحرب، النفي إلى دمشق 1914-1918،

تحرير أكرم مسلم، رام الله 2004، ص 19-25.

⁵¹ شفيق الرشيدات، فلسطين تاريخاً... وعبرة... ومصيراً، بيروت 1991، ص 43-50.

⁵² حداد، خليل السكاكيني، ص 146؛ كذا أنا يا دنيا، ص 284..

⁵³ نواف عبد حسن، خليل سكاكيني بين الوفاء والذكرى، مرجع سبق ذكره، ص 97.

الهلال الخصيب، أي فلسطين وسورية والعراق. وقال: "إذا ذهبت فلسطين، فما أسهل أن تذهب سورية والعراق". لذا، انتقد في عام 1935 مقولة أن لا خطر على فلسطين من الصهيونية جراء شراء الأراضي والهجرة إلى فلسطين، وأن أرض فلسطين واسعة وعدد اليهود قليل. فقال: "إذا قسنا المستقبل على الماضي، إذا استمرت هذه المهاجرة، وإذا استمر العرب يبيعون الأرض واستمر اليهود في الشراء، فإن مصير البلاد مظلم جداً".⁵⁴

5- السكاكيني: خلاص الأمة العربية في وحدتها

تحدث السكاكيني في يومياته عن مشروعات عربيين طموحين يكملان بعضهما بعضاً: وحدة بلاد الشام التي تمتد من جبال طوروس حتى السويس وتضم فلسطين، والوحدة العربية، التي عرفها بـ "الجامعة العربية"، وهي التي تجمع كل البلاد العربية بعيداً عن الانتماء الديني كنفويض للجامعة الإسلامية. وهو على عكس نجيب عازوري، الذي أراد التسوية بين القومية العربية و"الجامعة الإسلامية" عبر إقامة دولة إسلامية في الحجاز، ودولة قومية في بلاد الشام والعراق، يرفض مثل هذه التسوية، مطالباً بدولة عربية لا مكان فيها للطائفية أو المذهبية.⁵⁵ ومن المؤكد أنه قد تأثر بثورة الشريف حسين التي أبطلت "الجهاد" الإسلامي وجعلت العرب يتضامنون على أساس القومية لإقامة دولة عربية في دمشق. وقيل نفيه من دمشق وذهابه إلى القاهرة خلال الحرب العالمية الأولى، آمن السكاكيني بوحدة بلاد الشام، سورية والأردن وفلسطين، باستثناء لبنان، الذي كان يسعى زعماءه، وفق رأيه، إلى تشبيك مصالحهم الاقتصادية مع الحركة الصهيونية.

وبعد إقامته الأولى في مصر، بدأ السكاكيني يتحدث عن مصر كوطنه العربي الكبير، الذي يشمل كل البلاد التي يتكلم أبنائها العربية.⁵⁶ ومن المرجح، أنه تأثر أيضاً بالحركة الوطنية في مصر ضد الاحتلال البريطاني، فجعله هذا يأمل أن تتحرر مصر وتصبح الجزء الأكبر في الوحدة العربية. لكنه فرق بين الوحدة العربية التي تعجز الحكومات العربية عن تحقيقها، وبين أماني الشعوب العربية الطواقة إليها، فقال: "ما أسهل أن نحيا كأمة واحدة، لنا مكان ولنا لغة ولنا أدبيات، وما أصغر همة الذين لا يهتمون إلا بوطنهم الصغير. لتكن الحكومات ما شاءت، فنحن (الشعوب العربية) لا يهمنا إلا أن نكون أمة واحدة"، وأضاف، إن فلسطين هي قطعة من البلاد العربية.⁵⁷

حثّ السكاكيني العرب على "الجامعة العربية"، مبيناً فوائدها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فهي تجعلهم قوة لا يُستهان بها تتصدى لمشروع صهيونية فلسطين وللتجزئة، وتجعلهم يشاركون الدول العظمى في توطيد أركان السلم العام. وتوقع أن يكون لها مردودها ومنافعها الاقتصادية، عبر توسيع التجارة العربية وجذب رؤوس الأموال الأوروبية لتنفيذ المشاريع. وللسكاكيني هنا زلة، إذ طالب العرب بعرض مشروع الوحدة هذا على مؤتمر الصلح في باريس

⁵⁴ كذا أنا يا دنيا، ص 267.

⁵⁵ فوزي الأسعد، خليل السكاكيني، ص 7.

⁵⁶ كذا أنا يا دنيا، ص 155-156.

⁵⁷ حداد، خليل السكاكيني، ص 54، 57.

للحصول على دعمه، ما يؤكد جهله في السياسة الدولية⁵⁸ حول مساعي الدول الغربية في أن يبقى العرب منقسمين ومشردمين. فأى شكل من الاتحاد العربي، أضاف السكاكيني، كان سيجعل العرب قوة عالمية تمسك بثرواتها ومقدراتها، وهو ما كان يتعارض مع مصالح الغرب في جعل البلاد العربية سوقاً مفتوحة لتجاريتها واستثماراتها، ومصدراً للمواد الخام. كما وقع السكاكيني في تناقض بين دعوته إلى الوحدة العربية وإبراز الشخصية القومية العربية وإحياء اللغة العربية، ودعوته إلى العولمة تحت شعار الإنسانية، التي تضم كل الناس فتقل الجنسيات واللغات وتتحول الدول الصغيرة وتجمع في أجسام كبيرة. فرأى أن هذا أفضل للإنسانية إذ يتآخى البشر وتقل بينهم الحروب والمشاحنات.⁵⁹

6- استنتاج

لا شك أن ما عانته فلسطين وبلاد الشام منذ نهاية القرن التاسع عشر، بدءاً بالمشروع الصهيوني لتهودها، مروراً بالحرب العالمية الأولى ومساعي العرب للتححرر من الحكم العثماني، وفي المقابل المشاريع الاستعمارية المنصوبة لمنطقتهم، فضلاً عن بزوغ الحركة القومية العربية في فترة ما بين الحربين العالميتين، وانتهاءً بإنشاء دولة إسرائيل عام 1948، صاغت كلها شخصية خليل السكاكيني، الثائر القلق على مصير وطنه المهّدد فلسطين وأمتة العربية الضائعة. فشهد عن قرب ولمس عن حق أمراض أمتة ورواسب الاستعمار فيها، والقوى التقليدية المهيمنة عليها، ولم ينس أن يحمّل الكنيسة مسؤولية حالة التخلف التي كان يغرق فيها.

إن دعوته إلى الوحدة الوطنية في فلسطين وتوحد العرب في "جامعة عربية" كان القصد منها مجابهة المخططات الخارجية والنهوض بالمجتمعات العربية لتصبح في مراتب الدول الكبرى، وكان هذا يستلزم، في رأيه، نبذ الطائفية وحدوث انقلاب في الفكر السياسي والعلاقات المجتمعية. لذا، كان السكاكيني بعيداً كل البعد عن الطائفية والتعصب. وعندما وجد أن آفة الطائفية تفعل فعلها في وطنه، ما يضعف مقاومته للأطماع الصهيونية في فلسطين، ولأن غالبية السكان مسلمون، اقترح بشكل لم يسبقه إليه أحد من قبل، أن يعتنق المسيحيون الإسلام وبالتالي توحيد الجبهة الفلسطينية الداخلية لمواجهة الأخطار. فضحى بالدين من أجل الوطن والأرض، لأن هاجسه انصب على الحفاظ على عروبة فلسطين عبر وحدة مجتمعية. فلم يجد حرجاً في ذلك، بسبب ميوله العلمانية وشطحاته الإلحادية.

وفي الوقت عينه، ثار السكاكيني على التقاليد الاجتماعية البالية، التي حمل الدين ورجالاته مسؤولية الكثير منها. فرأها تزيد في التخلف ولا تؤسس للمجتمع الذي رغب فيه. ولعل دعوته إلى تحرير المرأة، وإن كان ترديداً لما سبقه إليه قاسم أمين، إلا أنه يعتبر موقفاً ثورياً في ظل الأوضاع الاجتماعية في فلسطين والموقف العام من المرأة وحريتها الشخصية. فبدعوته المرأة بأن تكون

⁵⁸ يوميات خليل السكاكيني، الكتاب الثالث: "اختبار" الانتداب وأسئلة الهوية، تحرير أكرم مسلم، ص 37.

⁵⁹ كذا أنا يا دنيا، ص 66.

مسؤولة عن "شرفها"، اقترب السكاكيني كثيراً من العلاقات المجتمعية الغربية، التي كان يرى ضرورة الاقتداء بالصالح منها.

هل يمكن الحديث إذاً عن السكاكيني فيلسوفاً أو مؤرخاً أو مصلحاً اجتماعياً؟ في الواقع لم يكن السكاكيني صاحب نظرية فلسفية، فكانت له خواطر وأراء نتيجة اطلاعه على فلسفات الآخرين. كما لم يكن صاحب منهجية في دراسة التاريخ، ولا مؤرخاً درس الحدث بأسبابه ونشوءه وتطوره وتداعياته، بل مواطناً هزته الأحداث التي راقبها، فأدلى بدلوه حولها. كذلك، لم يكن محللاً سياسياً أو اجتماعياً، بل ناقداً لعيوب مجتمعه. ولم يكن على مستوى نجيب نصار صاحب "الكرمل" أو رشيد رضا، صاحب "المنار" في رصد الحركة الصهيونية ودقائق المشروع الصهيوني والتحذير منه. وعلى الرغم من ذلك، آمن السكاكيني بالإنسانية التي تتخطى السياسة والدين والعرق والجغرافيا، وبوطن لا تسحق فيه الطبقات الفئات الدنيا، وبتربية وتعليم حديثين يؤسسان لبناء أجيال المستقبل.